



صاحب الوسطية الجديدة

عبد الحميد إبراهيم



د. حلمي محمد القاعود - مصر

رحل عبد الحميد إبراهيم (١٩٣٧-٢٠١٢م)، بعد حياة علمية وأدبية حافلة بالرؤى والمواقف والتصورات والمواجهات، وكان في كل فعل وقول وفيما لا خلاصه وذاته، فأثرى الحياة العلمية والثقافية مع صعوبة الحركة المستقلة داخل حقل ثقافي ملغوم بالولاءات والعداوات والإغراءات والترهيبات، ولكنه استطاع أن يقول كلمته ويمضي في هدوء دون اهتمام يذكر من جانب أجهزة الإعلام والثقافة التي كان أحد فرسانها ذات يوم بعيداً!

الواقع الثقافي، وتعرفه على العالم الغربي وخاصة فترة عمله مدرسا في معهد الدراسات الشرقية في لندن لمدة سنتين، وهناك كان واعيا أن الحضارة تقاس بأنفاس الإنسان وليس بالمباني الشاهقة

ضمن محافظة قنا)، وحفظه القرآن الكريم كاملا في طفولته، وانبهاره في مرحلة التكوين بالثقافة الغربية وكتابات المروجين لها من الكتاب المصريين، حتى إثبات وجوده الأدبي والعلمي في

وقد روى سيرته في كتاب بعنوان الجذور، وأضاء جوانب عديدة من حياته ومسيرته الفكرية والعلمية بأسلوب أدبي ممتع، منذ نشأته الإسلامية في رحاب قرية الزينية، التابعة للأقصر (كانت

والتقدم المادي، ولذا لم ينخدع بروعة مباني لندن وعماراتها وحدائقها ونظافة شوارعها عن إدراك هذه الحقيقة .

وكان واعياً بطبيعة المجتمع العربي وأهم عناصر تماسكه، وفي بعض حواراته الصحفية قال: إن هناك شيئين يمسكان بالمجتمع العربي ويحفظانه من السقوط، هما العقيدة واللغة، وقد تنبه الاستعمار إلى هذه المصادر الغنية التي تقوي المجتمع، فأخذ يهاجم العقيدة واللغة، ويدعو إلى إحياء فكرة قديمة تاريخية قد انقرضت، وهي فكرة الفرعونية. مع أن الفرعونية ليست حية وليست ثقافة. وذكر أنها تقوم في جوهرها على فكرة الوثنية وتعدد الآلهة، وتألّيه البشر، وقد خفت فكرة الوثنية الآن تماماً؛ لأن التاريخ الروحي للبشرية قد تجاوزها ووصل إلى التوحيد من خلال الأديان السماوية الثلاثة.

ثم إن الواقع العربي الإسلامي يتمثل في الجماهير التي تملأ المساجد، وتؤمن بالله الواحد. ففكرة الفرعونية مرفوضة فكرياً ووجدانياً وجماهيرياً، ولا تمثل واقعاً حياً في الحياة المصرية المعيشة.

بيد أن اشتباكه مع الثقافة

الغربية جعله مذ كان طالباً في دار العلوم يفكر في الحوار مع هذه الثقافة ومعطياتها من خلال استغراقه في مطالعتها وقراءة التراث العربي والإسلامي في وقت واحد، ومحاولة اكتشاف الذات الحضارية للأمة من خلال أدبها وتاريخها وعقيدتها وشريعتها وحكمتها وأعلامها



عبد الحميد إبراهيم

وعلموها وتصوراتها، وجعله هذا الاشتباك يقدم للحياة الثقافية العربية والإسلامية ثروة بحثية وأدبية كبيرة، فقد ترك عبد الحميد إبراهيم أكثر من خمسين مؤلفاً في الأدب والنقد، والأدب المقارن، والبلاغة، والإنشاء الأدبي والوصفي؛ قصة ورواية وتراثاً وترجمة، ومن أبرز ما تركه:

الألوان عند العرب، نقاد الحداثة وموت القارئ.
وكان أبرز ما قدمه هو تأصيله لما سماه الوسطية العربية في ستة أجزاء، ثلاثة منها تناولت المذهب، والتطبيق، والوسطية العربية، وثلاثة أخرى تبدو أقرب إلى التطبيق الأدبي في الرواية العربية وحلم ليلة القدر والقرآن الكريم



والمذهب الوسطي، والأجزاء الستة تتجاوز ألفي صفحة من القطع الكبير..

لقد خاطب عبد الحميد إبراهيم الحياة الثقافية بالمذهب الوسطي قبل أربعين عاما تقريبا (١٩٧٩م تحديدا) حين أخرج الجزء الأول من الوسطية بعنوان: المذهب، وأهداه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أول من بعث عبقرية الصحراء، وإلى الرجل الذي سوف يأتي ليواصل الطريق. وتنبع أهمية هذا العمل الضخم من كونه يحاول إبراز الهوية العربية الإسلامية في مواجهة الفرق في متاهات غربية وثقافات معادية، ونزعة تخجل من الذات وخصوصيتها، أو تدعو إلى بعث ثقافات انعزالية قديمة، ولذا ينطلق من الواقع، ويستخدم مصطلحات مستمدة من التاريخ العربي، وينطلق من مذهب أصيل ليحاور من خلاله المذاهب الأخرى مثل الماركسية والوجودية، متجاوزا مرحلة الدفاع التي يقف عندها كثير من الباحثين في العصر الحديث.

وقد جاء مشروع عبد الحميد إبراهيم في سياق موقنين على الساحة الفكرية والثقافية، الأول يصرخ مطالباً بالاستقلال

الفكري، والآخر يفسر تاريخنا - بل ومستقبلنا - على ضوء ما يوجد في الغرب من وجودية واشتراكية ومدنية...

ولعل هذا يفسر الصمت على مشروع الرجل كما يظن، فقد قدم من وجهة نظره ملامح مذهب متكامل ينتزع من البيئة أدلة تطبيقاته المختلفة على مستوى



sonofalgeria.blogspot.com

د. عبد الحميد إبراهيم

الأدب المقارن

من منظور الأدب العربي

مقدمة وتطبيق



د. الشروق

ومدارس الخط العربي بدلا من المدارس التشكيلية الفنية، وعن الغربية بالمفهوم الإسلامي بدلا من غربة الآلة، وعن السكينة بدلا من البقاء للأصلح، وعن الدفع بين الناس بدلا من الصراع الطبقي، وعن عناية الله التي تحكم التاريخ بدلا من منطق التاريخ وحتميته.. في هذا المشروع يحتل العقل مكانته الطبيعية، فالوسطية لا تلفيه كما يظن بعضهم، ولكنها تستدعيه بكل قوة، وتدعو إلى استثماره كهبة منحها الله للبشر، فهو ميزان الله في أرضه - كما يقول الغزالي - يتعامل به الناس، ويصلون عن طريقه إلى الاختراعات والصناعات.

إن الوسطية تحرص على الموازنة بين الخاص والعام، وتجمع بين العروبة والإسلام، وهي ليست نظرية، ولكنها حياة يعيشها المسلم، وإذا كان التفكير الثنائي موجودا عند كل الأمم التي لا تعدم من يتحدثون عن الإنسان بوصفه مادة وروحا معا، فإن الوسطية العربية تبدأ من هذا التفكير الإنساني، ثم تسلك نفسها عنه لتصنع خصوصيتها.

ويمكن القول: إن الوسطية العربية كما يراها عبد الحميد إبراهيم تشبه صقرا، يتمتع

الممارسة اليومية، وعلى الخلق والجمال والفن والأدب والمنهج.

والوسطية لدى عبد الحميد إبراهيم تتحدث بمصطلحات مختلفة عما هو سائد في الحياة الثقافية، فهي مثلا تتحدث عن الحكمة بدلا من الفلسفة، والوحدة التركيبية بدلا من الوحدة العضوية،

والتشريحية، والأسلوبية والألسنية، أو يعرف الفروق الدقيقة بين مناهج كل من كافكا وبيكيت وسارتر ويونسكو وفولكنر والآن روب جرييه. إن القارئ لا يعرف ذلك لسبب بسيط، وهو أن المؤلف نفسه لا يفهم ما يقرأ، هو فقط مأخوذ بالحدثة، يسرع إلى تقديم المصطلحات الأعجمية، والأعلام الأجنبية، ويكتسب بذلك منزلة عند القارئ،



وتتسابق الصحف وأجهزة الإعلام إلى التقاط هممته، فهو يعرف ما لا يعرف الغير، وهو يجيد ثقافة العالم الغربي أكثر مما يجيدها الآخرون، وهو يرطن بلغاتهم، ويتحمس لأفكارهم أكثر مما هم متحمسون. ويضيف عبد الحميد إبراهيم أنه من الصعب جدا تصنيف أقوال الحدثة في العالم العربي، أو

بأفكاره، فهو يردد اسمه في كل مناسبة، ويشير إليه في كل مرجع، ويصبح في النهاية صدًى له، يود حتى أن يتسمى باسمه لو استطاع. وهكذا عرفت ثقافتنا العربية المعاصرة من يتعصبون لسوسير حتى أصبح سوسير عربياً، ومن يتعصبون لبوشلار حتى أصبح بوشلار عربياً، ومن يتعصبون لرولان بارت حتى تحول إلى رولان في طبعة عربية.

كما رأى أن المصطلحات عند نقاد الحدثة تبدو في صورة مربكة، وتكون النتيجة أن القارئ لا يعرف شيئاً، وقد تحدى عبد الحميد إبراهيم أي قارئ يتمكن من أن يخرج من مؤلفات نقاد الحدثة في العالم العربي، بالفارق بين البنيوية وما بعد البنيوية، والحدثة وما بعد الحدثة، والسيمولوجية

بجناحين قويين، يحفظان توازنه في السماء، فإن اهتز الجناحان أو أحدهما، اختل التوازن، وسقط على الأرض فريسة للهوام والدواب.

ولعل اشتباك عبد الحميد إبراهيم من خلال كتابه الأدب المقارن من منظور الأدب العربي - مقدمة وتطبيق، يمثل الجهد المباشر في إبراز الهوية العربية الإسلامية، فهو يسعى أن يكون للأدب المقارن هدف قومي، ويحاول أن يقارن بين ما كتبه الحريري صاحب المقامات من ناحية، وكافكا ورولان بارت من ناحية أخرى، حيث يستعرض الشخصيات القصصية والمناهج الأدبية لدى الطرفين، ويتناول ما يقدمه نقاد الحدثة العرب، والرحلة إلى السماء بين إقبال والذيربي، وجريمة قتل بين إليوت وصلاح عبد الصبور، وانتقال المصطلح الأدبي من خلال السعي للمصطلحات الأدبية، ثم يختم كتابه الضخم بالأدب المقارن والصراع الحضاري.

بيد أن موقفه من نقاد الحدثة كان جريئاً وشجاعاً عندما ناقش مقولاتهم ومنهجهم وإنتاجهم باستفاضة، وقدم البديل العربي الإسلامي في القضايا المطروحة. وقد رأى أن العزلة بلغت ببعضهم أن يتعشق كاتباً أجنبياً، ويتوحد



الشخص - كما يقول - أن يعرض نفسه، وأن يذل كبرياءه، وأن يتوسل إلى المقربين، وأحيانا يدعي المرض حتى يستثير عاطفة الإشفاق عند الذين يمنحون الجوائز. ويقول: «أنا أرفض هذا المنهج السائد الآن في مصر، وإن كان هذا الرفض قد أبعدني عن الجوائز الحكومية الرسمية».

كان الرجل يملك تاريخا ثقافيا جيدا يؤهله للحصول على أعلى الجوائز التي تمنحها الدولة التي لم تصل إليه، فقد أسس مركز المخطوطات العربية بجامعة المنيا، وأسهم في تأسيس كلية الآداب بالمنيا، وكلية دار العلوم بالمنيا أيضا، وكلية الآداب بصنعاء، وقسم اللغة العربية بجامعة سوكونو بنيجيريا، وكان من أوائل المؤسسين لمؤتمر أدباء مصر. وكان عميدا سابقا لكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا، وأسس للمؤتمر السنوي عن طه حسين، وشارك في الحياة الثقافية بالكتابة النقدية عن الإصدارات الجديدة (صدرت في

١٥ جزءا)، ولكن كل ذلك لم يشفع للرجل عند منح الجوائز الحكومية!

لقد ظل يعمل ويقرأ ويكتب حتى آخر أيامه في الدنيا، وقد هاتقني قبيل رحيله ليبلغني أنه سيرسل إلي مجموعة قصصية وكتابا آخر في القصص التي استخرجها من تراث السيرة النبوية، وصاغها بأسلوب معاصر، وتلقت الكتابين، ونشرت عنهما خبرا صحفيا، وكان يحدثني عن بعض أوجه القصور الثقافي الذي يحكم الحياة الثقافية، مع أن ظروفه الصحية كانت صعبة للغاية، وفي كل الأحوال فقد كان حرصه على العمل والمشاركة، يجعله دائما مشغولا بحركة الفكر والأدب داخل مصر وخارجها. رحمه الله. ■

وضعها في سياق منظم ومفهوم، فهي كثيرة، متداخلة ومتضاربة. لقد ركزوا في أفكارهم على مسألة موت المؤلف، والنصية أو ما يمكن أن نسميه بالتركيز على الشكل، نتيجة للقضية الأولى.

يقول: «أقرأ للواحد من نقاد الحداثة، فكأنني قرأت للجميع، وأقرأ كتاب الواحد منهم، فكأنني قد قرأت جميع كتبه. وما أظن أن ذلك بسبب ذكاء نادر عندي؛ وإنما لأن المصادر واحدة، واللغة واحدة، بل إن المصطلحات والأعلام تكاد تتكرر من ناقد إلى ناقد، ومن كاتب إلى آخر».

وليس من الصعب متابعة المصادر عند نقاد الحداثة، فهم يذكرونها ويكررونها، ويتباهون بها، ونظرة إلى ثبوت المصادر في مؤلفاتهم، أو إلى فهارس الأعلام عندهم، تدل على المباشرة الشديدة بالمصادر الأجنبية، وعلى الولوج بترديد الأعلام الإفرنجية.

وهم بذلك يريدون أن يظهروا بمظهر المتعالي على القراء، يعرفون ما لا يعرف، ويرددون من المصطلحات ما لا يُردد، ويلوكون بألسنتهم

من الأعلام الأعجمية ما لا تستطيعه أسنة الآخرين، ويضعون الكثير من الكلمات الأجنبية في مقابل مصطلح عربي (انظر كتابه: نقاد الحداثة وموت القارئ، نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م، ص ٢-٦).

ولعل موقفه هذا كان من وراء القطيعة بينه وبين المؤسسة الثقافية الرسمية التي اتخذت نهجا مغايرا لما يذهب إليه، فتجاهلته، ولم تمنحه أيًا من جوائزها، مع أن جهات عديدة رشحته، وبينت أسباب استحقاقه، وكان هو يدرك أن من يحصل على جوائز الدولة لا بد أن تكون له مواصفات خاصة تتعلق بالسلوك العام، لا تنطبق عليه. وتقتضي من

